تل الزعتر

انتهى عبدالحليم حافظ من اغنية حب فاشل .. بعد موسيقى قصيرة ، نشرة انباء . المذيع يلتزم في ادائه « الموضوعية » فلا تتغير نبرة صوته وهـــو يقرأ انباء تطور القتال بتل الزعتر . . غصة خفيفة في قلبى تمحو اثارها خفة دم عادل امام وانا اتابع تمثيلية كوميدية له بالتلفزيون ٠٠ ذهبت للنوم بفراشي النظيف الوثير ٠٠ نسيت كيف كانت نومتي من قبل ٠٠٠ آه ٠٠ كان أشد ما يؤلمني قلة الغطاء شتاء . . كنت اتدفأ بأجسام اخوتي ٠٠٠ احيانا كان البرد اقسى من دفء اجسامنا ٠٠٠ ظللت طويلا احلم بالخبز للجميع واحلم ايضا بالغطاء للجميع . . نبض قلبي لفلسطيين . . عدت لتل الزعتر ٠٠ ضايقني حياد المذيع ٠٠ مددت يدي اتلهي باخبار متناثرة في مجلة مرحة ، ضحكت من رسم كاريكاتوري ٠٠ نمت شهرا ٠٠٠ طالعتني مصادفة انباء تل الزعتر ٠٠ مذابح . . مقاومة . . بطولة . . بسالة . . فاشية . . يسار ٠٠ يمين ٠٠ نساء تبقر بطونها ٠٠ تستنجد بالمسيح ٠٠ قالوا لهن انه يقف هناك . . على الطـرف الاخر . . الاصوات والكلمات تتداخل . سرت رجفة في عظامي وانا اتساءل على بعد الاف الاميال . مـن المخيم . . اين يقف المسيح ؟ كان مثلهم ، يتدفأ في لحم امه في بيت لحم . . مآت بردا عندما صلبوه بعيدا عنها . . ظهرت صوره بالتلفزيون كومة جثث لاطفال كان يمكن ان يلتفوا حول المسيح ٠٠٠ يتدفأون فوق الصليب ٠٠٠ يذيبون صلب مسامير يديه . . لم يتيحوا لهم الفرصة . . كومة ساكنة لا تستطيع حراكا .. لا تسمع ولا ترى .. الشماتة والتشفى او ٠٠ الاستنكار والعطف ٠٠ او ٠٠ الثورة والرغبة في الثار: لم يعد شيء يعني الكومة الساكنة. اصبح امرها يعني الآخرين . يجب دفن اكوام اللحم خوفا من انتشار الاوبئة . . وربما ايضا لحرمة الاموات . . هل المسيح يقف على الطرف الآخر حقا ؟ قسد يأتى يصحبهم الى حيث دفن هو نفسه . . سمعت انه مثلهم ممنوع من دخول بيت لحم . . بل ومن فلسطين ! حضرت اجتماعا لتأييد مقاتلي تل الزعتر والاشادة ببطولتهم .. فرغت الكلمات من مضمونها والصور تتوالى . . رؤوس فصلت عن اجسادها . . . عجوز بين حطام كوخه الصغير يبصق علينا نحن المشاهدين ٠٠ عصام او عادل او عمر ملقى في بحر دمائه . . يده تقبض بقوة على بندقيته . . يحتضنها . . يوصي بالرفق بها . . خرجت من الاجتماع ومطارق تدق رأسي ٠٠ ترقـرقت دمعــة في عيني ٠٠ قلت لصديقى : « أريد أن أنسى ، لنذهب الى بـار الشيراتون . ونأخذ كأسين . » عدت اضحك ميع الاصدقاء الملتفين حول البار . . حمدا لله . . نسيت تل الزعتر وغابت صوره عن عيني . . نمت نوما هادئا

لدة اسبوع ... صحوت على عنوان صحيفة .. لا يزال المقاتلون يقاومون ببسالة .. دفاعا عنى !! بكيت بصوت على . رجال المخيم يبكون بدورهم على .. خرجت الى الشارع . رحت أشكو للنيل .. سألته من يبكي على .. .

صمت النيل كعادته الازلية .. ادار صفحته وطلب مني توجيه سؤالي لمن يتكلمون .. الناس تسير على ضفتيه .. في ايديهم لب وترمس .. واحيانا لا شيء .. البعض يتكلم والاخر لا ينصت . صرخت صرخة مدوية .. تل الزعتر .. تطلع المارة الي بدهشة . ابتسم نفر من جنوني ومنحني آخر نظرة اشفاق .. قال لي ابي : وربني جند الامن وكسروا ذراعي .. اشتركت في الاضراب ..

المشكلة قطع المرتب حتى تشفى ذراعه ٠٠ بكت امى . . علا نحيبها . وصبى البقال يسألها دفع دين الشهر الماضي . . كانت دموع امراة . الرصاص اقسى من صوت صبي البقال . . المخيم جزيرة محاطة بوحوش ضارية . وقفت طبيبة امام الات التصوير . . قالت بنبرة حاسمة : « سنقاوم وننتصر » . اخدت احلل الكلمات التي طالما طربت لقراءتها في سريري المريح.. س . . ن . . قا . . و . م اي سنرد رصاص المعتدين بصدورنا . . وس . ن . ن . . ت . ص . ر . . ستفنی الرصاصات ونبقى . . أطمأن قلبي . . حاولت النوم . . لم انجح . . شربت كأسا واثنتين . هرب نومي مع طلقات البنادق . . جريت نحو الحبوب المهدئة . . نمت حتى الصباح . . عدت اتطلع الى وجه المدينة . . العثور على مقعد بالاتوبيس يشبه الحرب الصغيرة ٠٠ تعقبت رجلا يعدو للحاق بالباص - اسمع ٠٠ تل الزعتر . رفع يده يطالبني بالكف عن الكلام دون ان يستدير ٠٠ قد ٠٠ قد يتمخض اجتماع الجامعة العربية هذه المرة عن شيء البارود تسد حلقي . . . رائحة بولي وانا اتسمر في مكاني تشبه رائحة الخيانة _ كل الروائح نتشابه وتجثم على. صدري . رأيت نفسي في عيون كثيرة حولي لم تعسد الخمر تشفيها . . كسرت ذراع ابي وكسر عنقه . . تحسست عنقى في هلع _ شعرت بغثيان قاتل .

الطريق الى لبنان محفوف بالمخاطر .. تتزحلق سيارات المسؤولين في الدماء التي تفرق الطرق .. يا تل الزعتر .. اجبني بحق السماء .. اجبني قبل ان يخفت صوتك المؤرق . . كيف السبيل اللك ؟

اني اتز حلق في بولي ودمائك _ فكيف السبيل اليك ؟

باریس ۱۶ آب ۱۹۷۲